

# الخطوة الثالثة

كمال ممدوح حمدي

عبدالجبار الحيا - ٢

انتفاء... جدا!



«انتفاء... جدا» للفنان عبدالجبار الحيا، ١٤٠٤ هـ، الرياض؟؟

الأجسام مسطحة من لون بلا ظلال مع ذلك تكشف الاجسام عن معرفة تشريحية غير عادية عند ماتيس.. وانظر الى لوحة الحيا، الى الخطين الطولين الممتدين وسط كتلة، الجسد (بغض النظر عن خطي الاطار الخارجي). الخطان هما امتداد الساق واثنائها، وهما الركبة، وهما الكتف، وهما الذراع، كل هذه الاجزاء بخطين اثنين، غير كاملين، مع ذلك فتفاصيل الجسد التشريحية الدقيقة، حاضرة ومائلة بكل التفاصيل الدقيقة التي لم يشر اليها الرسام بخط او لون! في اعلى اللوحة، ذلك الجزء الافقي البعيد، بدرجة اقل قليلا من لون الرمال، يعطيك امتداد الافق الى ذلك العمق الكوني، بعدا ثالثا..

لوحة الحيا تحيلنا مرة اخرى الى فنان اسبق، الى بول سيزان (١٨٣٩ - ١٩٠٦). وربما تحديدا الى لوحة «صبي في حلة حمراء» ١٨٩٣ - ١٨٩٥م، حيث تحديد الاطار الخارجي للجسم بالخطوط الداكنة، انه مجرد مد للخبرة الفنية الى عمق ابعد، لان ماتيس قد حمل هذا المنحى عن سيزان، ونقله الى الحيا ضمن من «خبروا» تجربة الفن..

في احد احاديثه اعترف الفنان رينوار بأنه اخطأ فهمه للتأثيرية، التي كانت بالنسبة له «حليفا اعمى، بتعبيره، وسيزان، رغم اعجابه بديلاكروا، قد نسب نفسه الى التأثيرين، وبالذات الى بيسارو، ولكن هذا الانتفاء للتأثيرية، بحس لا يفارق كثيرا حس رينوار يتحول تدريجيا الى ان يصل ماتيس، ليصطبغ بنزعة تعبيرية نرى مدى جديدا لها عند الحيا.. يؤكد ماتيس نفسه هذا التحول: «ان ما اسعى اليه، فوق كل شيء، هو التعبير.. لست بقادر ان اميز بين ما احمل من حس بالحياة وبين طريقي في التعبير عن ذلك الحس، ولا بد ان يعود بنا ما يقوله ماتيس الى ما اكتشفناه معا في لوحة الحيا من احساس بمعنى الانتفاء.. لقد اكتشفنا ان معنى ليس - ربما - دائما في ذهن النائم، بل في وجدان الفنان عبدالجبار الحيا.. ونحن عندما اكتشفناه لم نعرفه من «حديث، للحيا، بل من عمل له.. انه، ولا شك، ليس بقادر ان يميز بين ما يحمله من حس بالحياة، وبين طريقته في التعبير عن ذلك الحس، بين «انتفاء» جدا، وبين تعبيره بلوحة «انتفاء» جدا..

في كلام سابق عن الفنان عبدالجبار الحيا، ولوحة «بناء» او «تركيب»، (الفضل الاخرى)، رأينا جانبا من خبرة هذا الفنان الكبير ممدا اليه من موندريان، خبرة واعية ومستوعبة لمدارس الفن، رأينا جانبا اخر منها، من سيزان وماتيس، لم يصرفه - في «البناء» او «انتفاء جدا».. عن امتلاء روحه برموز واقعة، وتفاصيل الحياة التي ينغمس فيها.. نحن لانزال جادين في البحث عن مزيد من الشواهد، تؤكد استنباطا في بداية الحديث الاول عن فناننا الحيا، بأنه «فنان كبير».

ما الذي جاء بهذا النائم الى هنا؟ ومن يكون؟ اللوحة كاملة ليس بها إلا لون واحد يغطي على ساحات صغيرة من الاحمر والبني حتى يكاد يلغياها، لون مركب من الاصفر مع البني، بدرجات متعددة، واقل قدر من الخطوط، ليست خطوطا مستقيمة (اجمل الخطوط وانماها، كلوحة عبدالجبار الحيا السابقة: بناء، او تركيب..). ولكنها خطوط انسيابية تذيب التفاصيل في الكتلة، وتداخل الكتلة - في انسجام - مع الفراغ، او الخلفية.

المكان قفر على ما يبدو، لا اثر لحياة من اي نوع، ليس هناك نبات واحد، او كائن حي واحد، او بيوت او خيام بل ليس هناك اثر لظل، حتى النائم لا ظل له، صحراء هي الارض، ولكنها تتماوج مثل بحر مهتاج، هي اذن «بحر من الرمال»، والنائم مجهول التفاصيل، فاجزاء جسمه اتخذت شكل خطوط امواج بحر الرمال، حتى الوجه اخفى صاحبه تفاصيله بسحب غطاء الراس على الوجه، ليس اتقاء لحرارة الشمس، وانما امعانا في تجهيل الملامح، ومن ثم «اطلاق» الرمز.

هو نائم منذ مدة، عمرها من نصف عمر الرمال، فلون الثوب اخذ في التحول الى لون رمل الصحراء، حتى اصبح لونه نصف درجة لون الرمال.. وزمن نومه ايضا من نصف عمر الرمال، لانك لو وضعت يدك على راس النائم، او اخفيها بشيء، لاصبح بقية الجسم النائم جزءا من تضاريس وتركيب الرمال.. اهذا ما يؤكد مصداقية اسم اللوحة: «انتفاء جدا»؟ حيث الارض والجسد يتداخلان، ويتبادلان عناصر التركيب؟ الانتفاء للارض مثلا، هو ببساطة احساسك ازاءها بانك مالك ومملوك، تملكها وتملكك، تريد ان تمنحك «عطايا الاخذ العظيم»، وان تمنحها بدورك اخذا عنها، واختلاط جسد النائم يجسد الرمل اشارة الى هذا الحب، بتبادل عطاء الاخذ!

لكن هذا الفهم، المعنى الانتفاء، ليس هو ما يدور بذهن النائم، او قد يكون ربما، وانما اليقين انه ما يدور بذهن الفنان نفسه، عبدالجبار الحيا، جانب من الذات، يتلبس لحمه «الموضوع»، ولهذا معاودة اخرى..

شكل الخطوط، وبث الذات خلسة بين جزئيات الموضوع، يضاف الى ذلك، تسطيح اللون، (عدم استخدام الظلال)، كأنما بلا حرص على ابراز البعد الثالث في العمق عبر الظلال، كلها لا بد ان تأتي الى الذهن بأسلوب فنان آخر، في بعض اعماله، هو هنري ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤م) حيث الاجسام محددة بالخطوط كلوحة الحيا، وحيث الالوان جديدة او مستحدثة ليس للعين خبرة لونية بها، وحيث الالوان مسطحة، لا تحرص على اظهار بعد ثالث، مع ذلك - عند الاثنين، ماتيس والحيا، للبعد الثالث حاضر افرانك بالترجل والدخول الى ذلك العمق.. ماتيس لوحة «لو لوكس، للثلاث بنات يمرحن».